داروين والتفكير الجديد

« أنت لا تعنى إلا بالصيد والكلاب ، وإمساك الجرذان ، وسوف تكون عاراً على نفسك وعلى عائلتك . »

هذه هى الكلمات التى تلقاها داروين من أبيه فى وقت كان يلوح لأى إنسان يتأمل داروين أنها صحيحة ، وأن هذا الشاب قد خاب الخيبة التامة . فقد تسكع فى دراسات مختلفة ، ولكنه لم يستقر على واحدة منها . فقد التحق بكلية الدين ثم تركها ، والتحق بكلية الطب ثم تركها . وفى غضون ذلك كان يلعب ، أو على الأقل كان يبدو كأنه يلعب . يخرج إلى الحقول ويجمع النباتات ، ويصيد الحشرات ويقارن بين النباتات . ويفكر تفكيراً سريًّا كأنه يتآمر على الكون كله ، كى يغيره أو يغير البصيرة البشرية فيه .

والآن بعد أكثر من مائة سنة من هذه الكلمات القاسية التى قالها أبوه عنه لا يعدّ داروين عاراً على عائلته بل هو فخر أمته يتباهى به التاريخ الانجليزى . وبعد نحو خمسين سنة من هذا التوبيخ الأبوى تأمل داروين حياته الماضية ، ومبلغ ما أتمه من الخدمة فى التوجيه الذهنى للعالم فقال : « أظن أن أبى قد قسا علىّ بعض القسوة » .

ومات داروين فى عام ١٨٨٢ بعد كفاح ثقافى طويل . ونحن الآن بعد وفاته بخمس وستين سنة ، نستطيع أن نقول إنه كسبنا فهماً جديداً للطبيعة والكون والانسان ، وزودنا بمنهج للتفكير لم نكن نعرفه من قبل . فان كتابه « أصل الأنواع » الذى أخرجه فى عام ١٨٥٩ حمل إلى القراء شيئين : أولهما معارف تكاد تكون حقائق عن أصل الأنواع فى الحيوان والنبات ، وأنها جميعها ترجع إلى أصل واحد أو أصول قليلة . وثانيهما منهج للدراسة هو أن الاستقرار لا يعرف فى الطبيعة ، وأن الانسان والحيوان والنبات فى تغير مستمر .

ونحن الآن لا نبالى الحقائق أو المعارف التى شرحها داروين . ولكننا قد اتجهنا الوجهة التى عينها لنا . فنحن نفكر فى التطور ، ونفكر متطورين ، وأصبح التطور حقيقة علمية نقيسها بالمليمتر والميلجرام فى الحيوان والنبات . كما أصبح أيضاً مذهباً دينيا ، أو مبدأ أخلاقيا عند المثقفين ، وانفسخ به التاريخ البشرى آفاقاً إلى ملايين السنين ، بل مئات الملايين خلف البشر وبعد البشر .

لقد قيل إن جاليل حط الانسان من عليائه ، حين أعلن أن الأرض ليست مركز الكون ، وأنها كوكب صغير يدور حول الشمس . ولعل الشمس أيضا نجم صغير لا يختلف من ملايين النجوم التى نراها كل ليلة فى المساء . ولكن داروين رفع الانسان إلى هذه العلياء من جديد ، وأثبت انه لم يكن عالياً فسقط ، وإنما هو كان ساقطاً يعيش على حضيض الطبيعة حيواناً كسائر الحيوانات والحشرات ، ثم ارتفع . وبهذه الكرامة الجديدة انتقل من أسر القدر ، وأحس أنه تاج التطور ، وأن له الحق فى تدبير هذا العالم ، وفى تعيين السلالات القادمة ، بل ماذا أقول ؟ فى إيجاد الأنواع البشرية الجديدة .

ومع ذلك لا أعتقد أن داروين نفسه ، كان يقدر الطاقة الكامنة فى نظريته . ولا ينتقص هذا من عظمته ، فان تفكيرنا الشخصى يسير بقوات اجتماعية ، لا نكاد نبصر بها أو نتعمق أصولها . ذلك أننا نفكر بحوافز من العواطف التى نكتسبها من المجتمع ، بما يفرضه علينا من القيم والاوزان ، وما يرسمه لنا من المطامع والآمال . والمجتمع يطالبنا باستجابات مختلفة تستحيل فى كياننا النفسى إلى عادات عاطفية لا نستطيع الخروج منها ؛ فنفكر فى منهج خاص هو ثمرة هذا التوجيه الاجتماعى الذى لا نحسه لأنه لا يرتفع إلى وجداننا وتعقلنا .

ولذلك نستطيع أن نقول إن نظرية داروين وجدت الحافز الأول على التفكير فيها من المجتمع الذى عاش فيه داروين . ذلك أن داروين قضى إلى زهرة حياته إلى نضج الشباب وإيناع الكهولة فيما بين ١٨٣٠ و ١٨٦٠ . وكان عمره وقتئذ بين العشرين والخمسين ، وكانت انجلترا فى تلك السنين ترغى وتربد بالحركة الصناعية الجديدة ؛ فالمصانع تحتشد بالعمال من الرجال والنساء

والصبيان ، والثروات تنمو ، والمزاحمة على أقصاها ، وإنجيل النجاح يدرس ، ويعبد والسياسة تخدم الاقتصاد وتضرب الأمم النائية وتؤسس الأسواق فى المستعمرات وأصبحت انجلترا سيدة البحار لأنها احتاجت إلى أكبر أسطول يحمى مستعمراتها وأسواقها التى تباع فيها مصنوعاتها الفائضة .

وعاش داروين فى تنازع البقاء هذا الذى لا يفتر فى لنكشير وغير لنكشير من الأقاليم الصناعية فى انجلترا .

وفى تلك السنين أيضاً قرأ كتاباً أحبه وتعلق به لأنه وجد فى نفسه الاستجابة لنظرياته بما تكون له من عواطف أحدثها الوسط الصناعى الانجليزى ، هو كتاب القسيس مالتوس عن السكان . فان هذا القسيس كان من المحافظين الانجليز الذين يكرهون العامة ، ولا يرون فيهم سوى غوغاء . فلما انفجرت الثورة الفرنسية واستولى بها الشعب على حقوق السادة من الملوك والعظماء ثم أعلن رجالها مبادئ الاخاء والمساواة والحرية ، فكر مالتوس كثيراً بحافز من عواطفه المحافظة ، فأخرج كتابه عن السكان . وكان المغزى الذى قصد إليه أن هذه الآمال فى الاخاء والمساواة والحرية لن تتحقق لأن الدنيا لا تكفى الناس الذين يتوالدون على نظام تضاعفى ٢ و ٤ و ٨ و ١٦ الخ . ولكن المحصولات لا تنتج إلا على نظام حسابى ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ الخ . فاذا عاش الناس بلا مرض أو حرب أو حرمان لم تكفهم المحصولات . وإذن فالمرض والحرب والحرمان رحمة بالناس أو ضرورة لهم . وتأمل داروين هذا الكتاب الذى ألفه مالتوس عن المجتمع البشرى فساءل : لِمَ لا ينطبق هذا الكلام على المجتمع النباتى والحيوانى فى الطبيعة ؟ فان الطعام لا يكفى جميع الأحياء التى تتوالد أو تتكاثر بالألوف ، فهى يجب ، كى تعيش ، أن يزاحم بعضها بعضاً ، فتكون الحرب بينها أى تنازع البقاء ، كما فى لنكشير ومصانعها تماماً .

وفى ١٨٣١ أنفذت الحكومة البريطانية سفينة البيجل كى تطوف حول العالم وتسبر الأعماق وتدرس الشواطئ وتقيس الأبعاد . ولكن لماذا عمدت الحكومة البريطانية وحدها دون سائر الحكومات إلى الاهتمام بهذا الموضوع ؟ ما هى العاطفة الحافزة إلى هذه الدراسة التى لم تفكر فيها ألمانيا أو روسيا أو إيطاليا ؟

العاطفة الحافزة اجتماعية أيضاً . وذلك أن الحكومة البريطانية فى تلك السنين كانت تخدم الصناعة البريطانية ، لأن السياسة على الدوام تسير خلف

الاقتصاد . وكانت أسواق العالم وقفاً على المصنوعات الانجليزية ؛ لأن الحركة الصناعية الانجليزية سبقت الحركات الأخرى فى جميع الأمم . فمن هنا كان الاهتمام بالبحار والملاحة والأقطار النائية . ومن هنا أيضاً كانت الفرصة لداروين فى أن يلتحق بالسفينة « بيجل » كى يدرس الحيوان والنبات .

ولم يكن داروين جديداً فى هذا البحث : أصل الأنواع ؛ فان لامارك الفرنسى سبقه إليه ، وهو صاحب القول بأن عنق الزرافة قد طال لأنها بالمرانة التى ورثت جيلا بعد الجيل قد اشرأبت وسعت للوصول إلى الغصون العليا فى الأشجار . فكأن ما يكسبه الحيوان بجهده من صفات يورث جيلا بعد جيل . بل إن جد داروين قد بحث هذا الموضوع . فكانت النظرية « فى الهواء » تحتاج إلى من يرتب أصولها وفروعها ويعلل مظاهرها .

كان داروين شابا فى الثالثة والعشرين حين شرع فى رحلته على البيجل . فلما وصل إلى أمريكا الجنوبية ، وجد حيوانها ونباتها يختلفان عما هما فى القارات القديمة . ثم لما وصل إلى الجزر المنعزلة غرب أمريكا الجنوبية وجد أن انعزال الجزيرة يؤدى إلى انعزال الحيوان . فتكون له أشكاله التى ينفرد بها من الأشكال العامة على القارات .

وإلى هنا يكاد يتوهم القارئ أنه ليس هناك أى فضل لداروين فى تعليل النظرية . فقد سبقه إليها جده كما سبقه إليها لامارك الفرنسى . ثم هناك الظروف الأخرى : مالتوس وقلة الانتاج الغذائى إزاء تضاعف السكان ، ثم تنازع البقاء وبقاء الأصلح وفناء الضعيف فى المزاحمة العنيفة فى لانكشير حيث الحركة الصناعية فى عنفوانها .

ولكن لا ! لأننا مع التسليم بأن الوسط الاجتماعى أو البيئة الثقافية ، فى أوسع معانيها ، حين تشمل المعيشة والاتجاه والعادات والعواطف ، هى الحافز للتفكير ، فاننا مع ذلك يجب ألا نغفل الشخصية ؛ إذ لو لم يكن داروين ذكيا لما فكر فى هذا الموضوع الخطير ، ولما جعله هدفه فى الحياة .

لقد قال داروين عن نفسه : « إن الحقائق تضطرنى إلى الاعتراف بأن عقلى لم يخلق للتفكير . »

وقد ظلم داروين نفسه بهذه الكلمات . ولكن الحقيقة أنه لم يعرف نفسه . لأن الواقع أنه لا يقول هذه الكلمات إلا رجل مفكر قد أسرف فى التفكير وعنى

العناية الكبرى بغربلة الحقائق من المعارف ، وعرف الصعوبة الكبرى فى هذا الجهد . ولو أنه لم يكن يجهد كما قال هذه الكلمات إذ أنها ما كانت لتخطر فى باله .

الحقيقة الواضحة من حياة داروين أنه احترف التفكير ، وأنه كان مريضاً أو متمرضاً فى نفسه حزازة قديمة هى جرح الكرامة ، هذا الجرح الذى أحدثه أبوه وعيره فيه كما نرى مثلا من وصف أبيه له بأنه سوف يكون عاراً لعائلته . فقد كان لا ينام فى الليل إلا بعد أرق الساعات . وكان فى هذه الساعات يفكر ويؤلف . فاذا جاء النهار كتب كلماته القليلة ، ثم يبقى سائر نهاره مريضاً . ومرضه هو هذا المرض النفسى الذى يخترعه النيوروزى ويعيش به ويستقر عليه ، كأنه يقول : طلبتم منى النجاح والتفوق ، وكيف أستطيع هذا وأنا مريض ؟

مرض يصون الكرامة المجروحة (أنت عار لعائلتك) وفى الوقت نفسه يهيئ الفرصة للتفكير فى حضانة ليلية يسميها الأصحاء أرقاً . ولو أن داروين نجح وصار قسيساً أو طبيباً كما كان يشتهى أبوه لكسب العالم قسيساً أو طبيباً يمارس حرفته ويكسب منها. ولكن العالم كان يخسر عندئذ هذه العبقرية المريضة التى زعزعت الثقافة من أساسها ، بل زلزلتها وعينت أهدافاً جديدة للانسان .

كان داروين يكرر كلمة مألوفة بين أصدقائه هى « معدتى الملعونة » والترجمة السيكلوجية لهذه الكلمة هى : أريد أن أقعد وأتكاسل وأفكر ولا يساعدنى على هذه الحال إلا معدة ملعونة تزكينى وتسوغ لى الكسل والتفكير والتأليف .

وهذا الكسل من أعجب صفات داروين ، وهو صفة المريض النيوروزى الذى يكره النشاط ويرفض المعالجة لأى عمل لأنه يخشى النقص . أى لأنه يخشى أن يقصر عن التمام . فقد بقى داروين نحو ثلاثين سنة وهو يفكر فى التطور ، ولكنه لا يخرج كتاباً عنه ولا يكتب مقالا . ثم حدث حادث أزعجه فانتفض منه ، هو أن ولاس كان فى بعض الجزر التى تقع فى الجنوب الشرقى من آسيا يجمع الأزهار والحشرات ويحنطها ويبعث بها إلى الجمعيات العلمية . وكان مشغولا بالموضوع نفسه أى التطور ، وكان يعرف أن داروين مشغول به أيضاً . فأرسل إليه رسالة علمية يشرح فيها رأيه فى هذا الموضوع . وصعق داروين إذ وجد أن ولاس قد سبقه إلى تعليل التطور بأن الطعام قليل فى الطبيعة ، وأن التوالد كثير بين أنواع الحيوان والنبات ، فلا بد أن يكون

هناك تزاحم أى مسابقة من أجل الطعام . وفى هذا التزاحم أو المسابقة لا يبقى غير الأقوى الأصلح للبقاء .

وسارع داروين إلى إبلاغ الهيئات العلمية فى انجلترا عن رسالة ولاس . وشرع هو أيضاً يؤلف كتابه « أصل الأنواع » . ونستطيع أن نتخيل داروين فى حزنه ونزاهته معاً . ولكن وولاس بعد ذلك بسنين اعترف بأن العالم كسب ولم يخسر بتزعم داروين لهذه النظرية ؛ لأنه كان أوفى منه معرفة وأنصع بياناً وأدق منطقاً .

وأخرج داروين كتابه « أصل الأنواع » فى ١٨٥٩ فتغيرت الرؤية والرؤيا البشريتان .

وكثير من النظريات التى غيرت التفكير البشرى تبدو غاية فى السهولة والبساطة ، حتى ليتساءل الناس : كيف جهل السالفون هذه النظرية على وضوحها ؟

فان داروين يتحدث عن الحمام والكلاب وغيرها مما يربيه الناس وكيف استطاعوا أن يخلقوا العشرات والمئات من السلالات الجديدة . وما استطاعه الانسان فى مئات السنين القليلة قد استطاعته ، وأكثر منه ، الطبيعة فى ملايين السنين الماضية ، حتى أخرجت الأنواع فضلا عن السلالات . فهناك فى الغابات والبحار والجبال والسهول إنتاج محدود من الطعام ، ولكن هناك توالداً يتضاعف بين الحيوان والنبات ، ولا يمكن أن يكفى الطعام هذه الملايين بل ملايين الملايين من النبات والطعام . فلا بد إذن من أن تتنازع الأفراد لأجل البقاء أى لأجل الحصول على الطعام . وقد يكون السبب للتفوق فى هذا التنازع ثم البقاء خفيا ، هو كما فى النفس الأخير فى صراع يدوم الساعات . أو فى القدرة على الجوع أو العطش ، أو فى طرق الحماية للنسل ، أو فى القدرة على التطفل ، أو فى الجراءة والبطش .

وما دام كل فرد يولد مختلفاً عن الآخر فى الحيوان والنبات ، فان هذا الاختلاف ينطوى بلا شك على ميزة أو عجز . فهو يساعده فى الحال الأولى على البقاء والانتصار فى معركة الحياة . وهو يهيئ له الهزيمة فى الحال الثانية . ولا نعرف الأسباب لهذا الاختلاف ، ولكننا نشاهده ونسلم به . ولذلك لا بد أن يستمر التغير جيلا بعد جيل . فاذا تراكمت التغيرات أحدثت السلالات

الجديدة ، و إذا زاد الاختلاف بين السلالات ظهرت الأنواع الجديدة .

وعلى هذا يجب أن نسلم بأن الأحياء ، نباتاً وحيواناً ، ليست الآن كما كانت قبل مليون أو مائة مليون سنة ؛ لأنها دائمة التغير والتطور . وليس الاستقرار والثبات طبيعة الاحياء ؛ لأن التغير والتطور هما طبيعتها . ونستطيع أن نستنتج أنه ما دام لنا تاريخ ماض فى التطور فسوف يكون لنا تاريخ قادم أيضاً تتغير فيه الأحياء .

وهذا هو المغزى الخطير الذى انتهى إليه قراء داروين ، وهو أن الحياة فى بوتقة لم تتجمد قط ، وأن البوتقة لا تزال تصهر وتخرج عناصرها ومركباتها . وهذا هو التوجيه الجديد الذى سدد داروين عقولنا إليه . ونحن فى بداية هذا التوجيه الذى يخشى كثير منا مغزاه لأنه يحمل فى طياته مشروعات بشرية خطيرة .

لقد عالج داروين تطور الأحياء ، وحاول تعليل التطور ونجح إلى حد ما فى هذا التعليل ، ولكنه لم ينجح كل النجاح . وذلك لأن عواطفه الاجتماعية التى اكتسبها من المزاحمة الصناعية التجارية فى لنكشير ، ومن كفاح الامبراطورية لخطف الأسواق و إذلال الأمم ، هذه العواطف هى التى حملته على أن يكبر من شأن التنازع ، تنازع البقاء ، وحال بينه وبين رؤية التعاون فى الطبيعة . لأن الواقع أن البقاء عن طريق التعاون بين الحيوان والنبات أكبر وأوسع من البقاء عن طريق التنازع .

ونحن نعرف الآن كثيراً أى أكثر مما كان يعرف داروين . ولكن لداروين فضل التوجيه وتعيين الخطط للبحث ، وأنه زودنا برؤيا بشرية جديدة . فقد نقلت نظرية التطور من الأحياء فى الطبيعة إلى الناس فى المجتمع ، وصار من المألوف أن نجد دراسات منظمة عن الأخلاق والأديان وفق النظرية التطورية ما كنا لنراها لولا داروين . وانبسطت للبشر آمال فى المستقبل ، وتغير معنى الارتقاء البشرى لأننا نقلنا هذا المعنى من وسط الانسان إلى الانسان نفسه . بل أصبح التطور فنا نمارسه فى إيجاد سلالات جديدة من القطن أو القمح أو الفاكهة . وقد اجترأ هتلر وأعوانه على أن يفكروا فى سلالات بشرية جديدة .

سلامه موسى